الطبيعة في الصيف

جـــلاد الظلال ...

« الجزيرة »

[الجزيرة في هاجرة الصيف]

للأستاذ محمود حسن اسماعيل

دعوها على راحاته الخضر ترتمي ... فقد شفها برح الهجير المسمم
رمت فوقه أشجانها وتنفست ... إليه بشكوى عابر لمخيم
ولاذت به مفطورة ، فظلالها ... أسارير وجه اليائس المتجهم
وأدواحها ركبان دوّ أحالهم ... ضلال الفلا أصنام دير مهدم
تناجت بصمت أيقظت هجساته ... يمامات ظهر صاحيات كنوّم
هففنَ ، وذرّفنَ الغنى صبابةً
تخطّفنَ إحساسَ الغصون المتكتم
وأغفت على حضن من الموج نائم ... يخيل الرؤى إلا على كل ملهم
هو النيل رباها على الحب والهوى ... وعانق شطيها عناق المتيم
وطوق جنبيها فلاحت غريبة ... على ساعديه من أسى البين تحتمي
وتحكي له أشجانها ، وحديثها ... يغني بلا عود ، ويشكو بلا فم
تضوع غراماً وانتظاراً وحيرةً ... وشعراً إلى غير الهوى كم يُغنم
يمر على محرابها الناس غفّلاً ... كما مرّ بوذيٌّ على دار مسلم
وتسري حواليها السفائن خشّعاً ... سُرَى تائب في كعبة الله مُحرم
تشق عباباً مات هسهاس موجه ... فلاح كمشتاق إلى نفسه ظمى
ولولا خطا تياره لحسبتها ... تماثيل طير في سراب مدوّم
لها شرع بيض الحواشي متونها ... كأعلام جيش مستجير مسلم
سكون ولكن في حنيات صدره ... بقايا لهاث الشدّ في قلب مجرم
وأقمي على الأسوار قيظ رأيته ... يطل بوجه الحانق المتندّم
يلوح كجلاد الظلال وهذه ... سياط اللظي منه طوال التضرم
يكدن يحنّ الظل وهماً وغصنه ... تهافت مفزوع عميق التوهم
تشاكى من التعذيب فرع وطائر ... وعشب فكان الروض إيحاء مأتم
وأوقف نهش الريح لا كفُّ لاحد
ولا خطو بكّاء كثير الترحم
تعرّى عن الأستار ، فهو مكفّنٌ
بضوء على الأغصان حيران مُحجم
شواظ ولا نار ، ونار ولا لظى ... ورؤيا لهيب في خيالي وفي دمي
وموقدُ عبّادين مات لهيبهُ ... وشبت أغانيه سعيراً بأعظمي
وكدت أرى والنار لم تبد سجدة ... مجوسية قامت على كل مجثم
وركباً من التنهيد تخفي وجوهه ... وتنظر من وجه الأثيم الملثم
وحائرة من عالم الزهر أطرقت ... حداداً على عطر الصباح المعلم
مقيدة ، ملهوفة ، ذات آهة ... مقيدة تبدو كطيف مجسم
تمد يديها للغدير ، وقلبه ... إلى عودها يجرى بكوب محطم
أظمآى تنادى ظامئاً ؟ من رآى الأسى
يُغيثُ الأسى في الخاطر المتألم ؟ !
لقد بُحّ صوت الجو برحاً ولهفة ... كما بُحّ سر الغيب صوت المنجم

وهاجرة يُشوى بها الظل مثلما ... يقلب في الأشواق قلب المتيم
لها وهوهات في الربى خلت أنها ... فحيح أفاع من زوايا جهنم
رميت بها حران أحكي حكاية ... عن الصيف لم أنبس ولم أتكلم
ولكنني أروى عن الوحي كيفما ... روى لي بأطياف الخيال المهمهم
لنفسيَ أحكيها ، ومن هول سحرها
طلاسم سمعُ الغافلين المخمّم ...
رأيت جحيماً لم تباركه فارس ... بعباد نار من بنيها مزمزم
ولم يرن طواف إلى قبساته ... بقلب من التسبيح شاد مرنم
ولا حدثت عنه الخرافات أهلها ... ولا خط عنه الوهم حرفاً بمرقم
له وهج يُصلي الوجوه بحرّه ... ويفهق كاليحموم في مسرب الدم
وألسنة بيض لهُنّ رطانة ... بمثل لغاها كاهن لم يتمتم
كأن عفاريت الظهيرة طنبوا ... خياماً على هذا البساط المضرم
تنادوا بألفاظ صداها وساوس ... سمعت معانيها بآذان أعجم ...
رجو غضوب الذر يكظم نقمة ... ويكتم غيظ الساخط المتبرم
شممت به ريح المعاصي سخينة ... محملة الأنفاس من كل مأثم
يفحُّ كجراع الشكوك هواجساً ... لهن دبيب السم في رأس أرقم
وألحد صوفي النخيل ، فما أرى ... به هزة كانت إلى النسك تنتمي
لقد كان رعاش الأيادي تبتّلاً ... إلى الله لم يدنس ، ولم يتأثم
ولم يجن ذنباً يتقي عنه توبة ... مع الناس يدعوها بكف ومعصم
أما قام في الفجر الرطيب مؤذناً ... يصيح بتكبير على العقل مبهم
فما باله أصغى وأصغت ظلاله ... كمنتظر حكم القضاء المحتم !
وألقى على الأفق المصفد نظرةً ... كأصفاد عيسى والتفاتات مريم
وأزهق إحساس الطبيعة ، فاغتدت
كحزن على كتم الشكايات مرغم